



ختمت رسالتي السابقة بملحوظة على السلوك القمعي الذي يمارسه النظام، فهو ما زال ملتزماً بخطته الأمنية التي بدأ بها منذ اليوم الأول، لكنه لم يرتفع عن سقف العنف الذي وضع نفسه تحته منذ ذلك اليوم، فهو يقتل نحو مئة في كل أسبوع في المتوسط، وها نحن ننهي الأسبوع العاشر بنحو ألف شهيد.

إن النظام يملك آلة قمع وتدمير هائلة ويستطيع أن يفتكم بالشعب الأعزل في مجازر فظيعة، لكنه لا يفعل، ونحن نعلم أنه لا يخاف من الله، وأنه لا يخاف من الشعب، فلا بدّ إذن أنه يخاف من طرف ثالث، ولا طرف ثالثاً بيننا وبينه إلا المجتمع الدولي.

ندرك جميعاً أن الضغط الدولي على النظام ما يزال أقل من المطلوب بكثير، وأن مواقف الدول العربية والإسلامية والأجنبية ما يزال يكتنفها قدر كبير من المجاملة والتردد، لكن المجتمع الدولي يشكل غطاء أمان لثورتنا السلمية (ولو في حدود الأمان الدنيا). ولا شك أن الضغط الشعبي على الأرض سيدفع تلك الدول إلى المزيد من الجدّ في تعاملها مع النظام، وأن تحريك الإعلام الخارجي من شأنه أن يقدم الكثير، وهذا بابٌ كبير يستطيع السوريون المغتربون المساعدة فيه، فما عليهم إلا أن يعرقوا وسائل الإعلام المحلية في البلدان التي يعيشون فيها بالتقارير والصور والأفلام، بل يمكنهم أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك فينشروا نداءات مدفوعة الأجر في الصحف الكبرى.

خطر بيالي هذا الخاطر أولاً على أنه يمكن أن يفيد في تحريك الموقف التركي الرسمي، فأردوغان سيهتم كثيراً برأي الشارع وهو مقبل على انتخابات جديدة، والشارع التركي المسلم يحمل عواطف صادقة تجاه جيرانه السوريين المسلمين الذين تقاتلهم آلة الإجرام الحكومية، فلماذا لا ينشر إخواننا المغتربون في تركيا بضعة إعلانات مدفوعة الأجر في الصفحات التركية الكبرى تخاطب أردوغان (باللغة التركية طبعاً) وتناشده الوقوف مع الشعب السوري المظلوم، بل وتخاطب الشعب التركي نفسه ليضغط على حكومته ويدفعها في اتجاه إيجابي مؤثر؟ كما قلت: فكرت أولاً بأن أسلوباً كهذا يمكن أن يفيد في تركيا، ثم رأيت أنه يمكن أن يفيد في غيرها، مثلاً في أميركا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، بل حتى في روسيا، ومهما يكن أثر مثل هذه الإعلانات والنداءات قليلاً فلا بدّ أن يفيد فائدة ذات شأن.

سيبقى الشعب السوري في أمان نسبي -بأمر الله وبإذنه-. طالما بقي الضغط الخارجي فوق رأس النظام، وطالما استمرت الثورة في التغطية الناجحة للأحداث وتوصيل الصورة للعالم الخارجي، فهذا النظام لا يخاف الله ولا يخاف الشعب كما قلنا، ولذلك لا مناص من تخويفه بمن يمكن أن يخاف منه، وهو العالم الخارجي والقوى الكبرى! هذه هي النقطة الأولى من

النقطة الثانية: النظام لن يستسلم، وهو ما زال ماضياً في حملته الأمنية القمعية نفسها، وبما أنه ما زال يكرر القمع والتروع فلا بد أن نكرر التنبية والتحذير.

إنه لا يمارس العنف للقضاء على الشعب التائر كله، إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك للاعتبارات الدولية التي ما زلنا نكررها والتي يعرفها الجميع (لكن هذا لا ينفي أنه كان يتمى لـ يفعل). ألم يقل واحد من كبار مجرمي قيادة البعث القطرية قبل أيام إنه لا يمانع في إبادة ثلث الشعب السوري لإخماد الانتفاضة؟، وحتى لو اعتقل وقتل مئه ألف فسوف يخرج بدلاً منهم إلى الشوارع مئات الألوف. لا بد إذن أن النظام ينفذ حملته القمعية من أجل أهداف أخرى، ربما من أجل واحد من هدفين محتملين على الأقل، فلنحاول اكتشاف خطته حتى ننجح في إجهاضها قبل أن يُجهض هو ثورتنا، وحتى لا نقع في المصيدة ونرتكب أكبر جريمة بحق أنفسنا.

الاحتمال الأول:

بالغة أجهزة النظام القمعية في استفزاز الناس بهدف دفعهم إلى عسكرة الانتفاضة وحمل السلاح. لم يبقَ عاقل إلا وحذر من السقوط في هذا الشرك ومن آثاره الكارثية على الثورة، ولكن لا يأس بالتأكيد من جديد، فهذا ليس من الاجتهادات الفرعية التي يصح فيها قولان ويمكن التسامح فيها، بل هو أصل كبير من أصول الثورة الشعبية، بل هو أصلها الأصيل.

(1) لاحظوا أولاً أن طريق الثورات المسلحة أكثر كلفة من الثورات السلمية، هذا لو كانت الثورات المسلحة توصل إلى نتيجة أصلاً. إذا كنا نفقد الآن مئة شهيد في الأسبوع فلا يُستبعد أن نفقد ألفاً وألفين لو صارت ثورة مسلحة، وإذا كانت المدن والقرى تحاصر الآن وتُقتحم ويُعتقل كثير من شبابها ورجالها فيعيذون وبيهانون ثم يُطلقون، فإن الحرب تعني أن يقتلوا هم وأبناؤهم ونسائهم قتلاً ميدانياً جماعياً. وإذا سمعنا عن حوادث شاذة وقليلة جداً اعْتَدَ فيها على بعض النساء من قبل مليشيات الشبيحة فسوف تغدو هذه الحالات هي الأصل لو صار ما بيننا وبينهم حرباً مسلحة - لا سمح الله -. وأخيراً إذا كانت العصابات الأمنية التي تفتش البيوت الآن تسرق وتخرب فإن الحرب تعني دماراً كاملاً للبيوت والمتجار، بل للأحياء والمدن، وانظروا إلى مدن ليبيا التي خاضت الحرب (كمصراته والزاوية وأجدابيا والبريقة) كم أصابها من دمار وكم جرت فيها من فظائع وسقط فيها من شهداء.

(2) مع كل ذلك الثمن الباهظ الذي سيدفعه شعب سوريا فإن احتمال انتصاره في ثورة مسلحة قريبٌ من الصفر، فنحن سنخسر المعركة يقيناً لو تحولت الانتفاضة السلمية إلى انتفاضة مسلحة - لا قدر الله -، لأننا مهما نبذل من جهد في تسليح أنفسنا فلا يمكن أن نبلغ واحداً من مئة من حجم تسليح القوى الأمنية والعسكرية التي يملكونها النظام، وسوف تُسحق ثورتنا الضعيفة في أيام (إن لم يكن في ساعات) وتنتهي بمجازر فظيعة يصعب تخيلها.

(3) حالياً يوصف الوضع في سوريا -حسب المصطلحات القانونية الدولية- بأنه جمهور يحاول التعبير عن رأيه ويسعى إلى الحرية والديمقراطية بوسائل سلمية، وهي حقوق مشروعه يؤيدتها العرف والقانون الدولي ويدعمها، لكن لو بدأ صراع مسلح في البلاد فسوف يعامل كتمرد مسلح أو إرهاب داخلي، وفي هذه الحالة يصبح من حق الدولة أن تدافع عن نفسها وأن تحارب الإرهاب وتنقضي على الإرهابيين. ربما يقول البعض إن النظام يسوق هذه الخدعة ويقود حملته بناء عليها، وبذلك فإننا نتحمل الغُرم وندفع الثمن بلا مقابل. هذا الظن غير صحيح، فنحن نحن مقابل الغرم ونكسب مقابل لجم أنفسنا عن العنف والالتزام بالسلمية، والدليل في متداول كل واحد، بما على المتشكك إلا أن يتبع الإعلام العربي والعالمي يوماً أو يومين ليتأكد أن تلك الخدعة السرجنة لم تنطل على أحد (إلا على بعض المغفلين في داخل سوريا للأسف)، ومن ثم فإن الغطاء الدولي قد امتد فوق انتفاضة الشعب السلمية وشكّل لها نوعاً من الحماية والضمان. نعم، أواقف على أن الضغط على

النظام أقل من المستوى المطلوب (ناقشنا هذه النقطة في أول الرسالة) لكنه شكل الغطاء الكافي لردع النظام عن ارتكاب مجازر حقيقة في سوريا، وهذه بحد ذاتها خدمة جليلة قدمها المجتمع الدولي لثورة المستضعفين في سوريا. فلا يتهرون أحد من إخوتنا في الداخل بسبب الضغط والاستفزاز؛ لا ترفعوا سلاحاً - رحمة الله - فتفقدونا هذا الغطاء، فإنكم لا تطيقون أن تتحملوا وزر دماء كثيرة ومصائب وكوارث وبلايا لا حدود لها، ولو تعسكت الانتفاضة لصارت هذه المخاوف واقعاً - لا قدر الله -.

* * *

الهدف المحتمل الثاني لحملة القمع المستمرة:

عندما أدرك النظام أنه لن يستطيع إبادة الجماهير المنتفضة، وعندما فشل في خداعها بالوعود والتنازلات الوهمية، عندها صارت خلاصة خطته القمعية وعمودها الفكري أن يثبت الرعب في القلوب. إنه يقتحم المدن بالدبابات، ويعيث في بيوت الناس ومتاجرهم نهباً وتخربياً وترويعاً، ويتعلق الآلاف فيعيذهم ثم يطلقهم وعلى أجسامهم آثار التعذيب وعلى ألسنتهم قصصها، وهو يطلق عصاباته من مليشيات الشبيحة ليترکبوا بعض الفظائع (كما صنعوا في تلكلخ وقرها، وفي بعض أحياe حمص وجبلة وبانياس)... كل ذلك يصنعه لينشر الخوف ويزرع اليأس في قلوب الناس فيوقفوا الانتفاضة بأنفسهم، دون أن يضطر إلى الحل العسكري الشامل الذي يعلم أنه طريق مسدود سينتهي بحرب دولية، عاقبتها الحتمية سقوطه و نهايته ومحاكمة كبار مجرميه.

نحن لا نستطيع أن نحمل البنادق لمحارب النظام المجرم، لكننا نستطيع أن نحاربه بسلاح الشجاعة والاطمئنان وبسلاح التفاؤل والأمل، ولعل هذه هي ألمضى الأسلحة في معركتنا الصعبة، وهي أسلحة يستطيع أن يحملها كل واحد من غير أن يتهم ب العسكرية الانتفاضة وإخراجها عن خطها السلمي. فساعدوا على رد سلاح النظام إلى صدره بإشاعة التفاؤل ونشر الأمل، وبالتوقف عن نشر الأخبار المفجعة التي تهز النفوس وتخوّر العزائم. لا أعني أخبار الشهداء وصورهم فهذه تبقى ملهمة ودافعة إلى المزيد من التضحية مهما بلغت بشاعتها، ولن تزال الشهادة أسمى أمنية يتمناها إنسان، إنما أعني الأخبار المفزعـة من نوع الفيديو الذي نُشر على صفحات الثورة صباح جمعة الحرائر لأختنا التي تتحدث عن اعتداء مجرمي مليشيات الشبيحة عليها. لو كان الأمر إلى لطويـت مثل هذه الأخبار والأفلام ولم أنشرها على الناس، ليس تعـتـيـماً أو تضليـلاً، ولكنـا في حرب مع نظام فاجر لا حدود لـإجرـامـهـ، وقد وجد أنه قـهـرـناـ من قـبـلـ واستعبدـناـ زـمانـاً طـويـلاًـ بالـتروـيعـ والإـرـهـابـ يـحاـولـ فـيـناـ سـلاحـ القـديـمـ مـرـأـةـ أـخـرىـ، فـلنـجـرـدـهـ مـنـ السـلاحـ بـالـعـزـيمـةـ وـالـصـبـرـ وـالـتـفـاؤـلـ وـالـاطـمـئـنـانـ.

إن خوف الناس وبأيأس الناس -في داخل سوريا وفي خارجها- هو أكبر مكاسب النظام، وهو سوف يحقق أعظم انتصار له عندما يسيطر اليأس على أكثر القلوب ويتمكن منها الخوف، لذلك يجد من يقرأ رسائلي المتعاقبة أنني أبالغ في التفاؤل وفي بث الأمل. أعترف بأني كذلك، فأنا أحارب اليأس وأحارب الخوف، حاربتهما منذ اليوم الأول في ثورتنا المباركة وما زلت أحاربـهـماـ، وـسـأـظـلـ أـحـارـبـهـماـ فيـ كـلـ كـلـمـةـ أـخـطـهـاـ حـتـىـ يـأـذـنـ اللـهـ بـالـنـصـرـ وـالـفـرـجـ، وـلـنـ أـمـلـ حـتـىـ تـمـلـواـ.

وكما ظننت أن النظام سينتصر علينا بزرع اليأس فإني أظن أننا سننتصر عليه بزرع الأمل، وكما يغلبنا بـثـ الرعبـ والـخـوفـ فإنـاـ نـغـلـبـ بـيـثـ الـاطـمـئـنـانـ وـالـآـمـانـ. فلا تلوموني على التفاؤل والاطمئنان، بل انضمـواـ إـلـىـ معـسـكـرـ المـفـائـلـينـ المـطمـئـنـينـ، وـحـارـبـواـ النـظـامـ بـإـظـهـارـ الـمـزـيدـ مـنـ الـأـمـلـ الصـادـقـ وـالـثـبـاتـ الـمـطـمـئـنـ وـالـتـفـاؤـلـ بـالـنـصـرـ القـرـيبـ -ـبـإـذـنـ اللـهــ.

ولا يعني هذا أن لا نستعد للكثير من التضحيـاتـ، فالـمبـأـ الصـحـيـحـ هوـ "ـتـفـاؤـلـ بـالـأـفـضـلـ وـاستـعـدـ لـلـأـسـوـاـ"، وبـهـذهـ الطـرـيـقةـ نـنجـوـ منـ الصـدـمةـ وـالـإـحـبـاطـ لوـ طـالـ الطـرـيـقـ وـكـثـرـ التـضـحـيـاتـ -ـلاـ قـدـرـ اللـهــ. لذلك تجدون في رسائلي -ـمعـ كلـ التـفـاؤـلـ وـالـتـشـجـيعــ قـدـراـ منـ الـوـاقـعـيـةـ وـتـهـيـئـةـ لـنـفـوـسـ لـتـحـمـلـ التـضـحـيـاتــ. ولـعـكـ ماـ زـلـمـ تـذـكـرـونـ الـكـلـمـاتـ الـتـيـ خـتـمـتـ بـهـاـ رسـالـتـيـ الـرـابـعـةـ عـشـرـةـ، وـاسـمـحـواـ لـيـ أـعـيـدـهـاـ الـيـوـمـ:ـ إـنـاـ نـقـرـبـ بـسـرـعـةـ مـنـ فـتـحـ الـفـصـلـ الـأـخـيـرـ فـيـ "ـكـتـابـ الـأـلـامـ"ـ الـذـيـ قـرـأـنـاهـ طـوـالـ

خمسة عقود، وقد تطول أيام هذا الفصل وقد نعاني فيها الكثير، ولكنها –قطعاً– تستحق كل ما يمكن أن يُدفع فيها من أجل طيّ هذا الكتاب إلى الأبد.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: